

تجربة في التعاون المثمر

اختتمت في نهاية الأسبوع الماضي فعاليات المدرسة التكوينية - التي نظمت تحت رعاية وزير التعليم العالي والبحث العلمي - في فرع فروع الرياضيات يطلق عليه "الهندسة الريمانية والجمال الديناميكية". والهدف من هذه الورشة كان الانطلاق بالمشارك من مستوى الدراسات العليا في هذا الفرع المعرفي ليصل به المطاف بعد نصف شهر إلى أحدث ما وصل إليه هذا العلم الذي يتقدم بسرعة. يهمننا هذا أن نلقى بعض الضوء على أوجه التعاون التي طغت على هذا التكوين .. والذي اعتبره المشاركون نموذجاً حياً يقتدى به في مجال التعاون العلمي المتعدد الأشكال على مستوى قطاع التعليم العالي والبحث العلمي.

كان المنظمون يعقلون أمالاً واسعة على إسهامات تلك المؤسسات التي تعودنا السماع بها عندما يتعلق الأمر بالرياضة ونحوها. وكنا نحسب أن شركة مثل سونطراك - التي تؤدي فيها الرياضيات الدور الأول في تسيير كافة شؤونها - ستكون لها أن صاغية لنداءات المستجدين، لكن تلك الأمال خابت كلها.. والحمد لله الذي عوضنا بأحسن منها.

التعاون المتعدد الاتجاهات

والملاحظ أن أشكال التعاون لم تمس الجوانب المذكورة آنفاً فحسب، بل امتد إلى هيئات أخرى، فهذه وزارة الثقافة قد وضعت تحت تصرف المنظمين دار الثقافة لمدينة الوادي خلال 15 يوماً بكل تجهيزاتها ومرافقها. ويسعى مديرها إلى توفير كل ما لديه من إمكانيات لإنجاح الفعاليات اليومية. وبالمقابل طلب المنظمون من أحد المقاولين الخبيرين إجراء بعض الإصلاحات على بعض مرافق دار الثقافة التي ستظل شاهداً على التعاون الفعال.

أما مصالحي السياحة، فقد حجزت الفنادق للمشاركين دون غيرهم وأغلقته في وجه زبائنها السوء.. فكانت مداخل الفنادق مآلاً حلالاً طيلة أيام الورشة، حيث أغلقت الحانة ولوإحداها.. وكان للمشاركين أجران وأجر. وهذه وزارة التربية قد وفرت بعض التجهيزات لمصالح الولاية ليتم إعطاء المشاركين في أحسن الظروف داخل مطعم الولاية خلال نصف شهر.

وبالمقابل استفاد أساتذة التعليم الثانوي والتكميلي في مادة الرياضيات بتكوين مكثف خاص خلال يومين كاملين أشرف عليه مختصون قادرون إلى الوادي في إطار المدرسة التكوينية. وقد كان لهذا العمل التأطيري لرجال التعليم صدى إيجابي كبير قال المستفيدون منه بأنهم لم يسبق لهم أن حظوا بمثله.. وطالبوا بالمزيد. وأدى هذا النشاط العلمي إلى ميلاد جمعية أطلق عليها اسم "الخوارزمية للفنون الرياضية" تهدف، فيما تهدف إلى ترقية تعليم الرياضيات بالمنطقة مستلحق في نشاطاتها بمجرد اعتمادها.

ختامها..

وعند الإطلاع على سجل المشاركين وعلى الاستبيانات الموزع عليهم وعلى الرقيات التي أرسل بها أصحابها بعد عودتهم إلى بلدانهم يدرك القارئ مدى المفاجأة السارة التي حدثت لدى المشاركين. فقد عبروا جميعهم عن تميز سير أشغال هذه الورشة على المستوى العلمي والثقافي والساحي.. كما أشادوا بدقة البرمجة والتنظيم. وما أعابهم البعض على المنظمين هو كثافة البرنامج العلمي.

ويكفي أن نشير إلى ما كتبه أربعة مشاركين، أولهم عضو في أكاديمية العلوم الفرنسية (حضر كافة أعمال الورشة)، حيث أجاب عن السؤال "هل لكم ملاحظة حول الجانب التنظيمي؟" بالقول: "لا شيء.. سوى أن كل شيء بلغ

درجة الكمال". أما أحد المسؤولين على تنظيم هذه المناسبات بالمركز الدولي فقال: "بكل صراحة فالتنظيم والمستوى العلمي للمحاضرات قد بلغ هنا درجة يصعب علينا تحقيقها في مكان آخر". وهذا الممثل الرسمي للمركز المذكور يكتب: "كل شيء كان بالتأكيد ناجحاً جداً، ولم أحمل معي إلى بلدي سوى ذكري جميلة من الجزائر والرفقة في العودة إليها وإلى وادي سوف". وقال أساتذتنا متعاقداً جاء ليلقي محاضرات في موضوع تعميم الرياضيات: "لقد تفاعلت بنوعيتها المحاضرات ومواظبة المشاركين واهتمامهم وأسألهم وبإلحاح السائد هناك.. تلك هي شهادات البعض من المشاركين تؤكد على أن هذا النوع من التعاون يمكن أن يتم إذا ما وجد من يراعى على المستوى الوطني.

المشاركين ضمن هذه الجولات مئات الكلمات خلال الـ 15 يوماً عبر الصحاري غادرهم على مناطق لم يكونوا بها لولا حرص المنظمين والسلطات المحلية على راحة المشاركين. فهذه أجنة الخضرة والماء الجاري بمنطقه المرارة وهذه مآبتي العبادة والتعبد بزواية تماسين، وتلك منطقة جرداء تثار فيها الأضواء وتتصب فيها الخيم، وهذه منطقة النخيل الكثيف والزراعة الحديثة بهيئة والرفيعة، وتلك مشاهد فروسية في مدينة جامعة وهذه مزارع ومصانع لأثرياء الولاية ورجال أعمالها.

الكرم الجاهلي

كيف لا نتكلم عن الكرم في هذا المقام وأهل الرياضيات يعرفون أن مؤتمراتهم في مختلف بقاع العالم شحيحة، وهو ما جعلهم يتعدون على بطل أصحاب المال ويصفونهم بكل الأوصاف الشنيعة. فنحن الانبأ عندما نقول إن جملة تكاليف هذه التظاهرة لا يمدد كثيراً عن مليار سنتيم (إذا ما دمجنا كل المصاريف بما فيها تنقل كافة المشاركين من أماكن عملهم والمصاريف غير المرئية). وكان على المنظمين - الذين لا يمكنون من المال سوى مرتباتهم الشهرية كأساتذة جامعيين - أن يجدوا سبلاً مختلفة لتمويل هذه التظاهرة.

فراحوا يكاتبون كل من لهم فيه أمل في الإسهام المادي ومد يد المساعدة.. سواء تعلق الأمر بسلطات رسمية وطنية وأجنبية أو شركات عمومية وخاصة أو رجال أعمال وموظفين. ونتج عن كل ذلك أن وزارة التعليم العالي قد تكفلت عبر المركز الجامعي بالوادي والمدرسة العليا للأساتذة بالقبة، بإيواء المشاركين. بينما تكفلت السلطات الولاية بالإطعام على مدار 15 يوماً. وفي ما يخص تكاليف

سفر الوافدين من الخارج فقد تكفل بمعظمها المركز الدولي للرياضيات البحتة والتطبيقية والسفارة الفرنسية بالجزائر والمركز الدولي للفرنسيين النظرية بإيطاليا. لكن المصاريف لا تتوقف عند هذا الحد، فهناك مصاريف أخرى كثيرة، يصعب هنا حصرها، كانت كلها على عاتق تمويل الخواص من محبي العلم وأهله. ويستحسن هنا أن لا نقدم معلومات كثيرة في هذا المجال حتى لا تنفسد الصدقات" ونسي إلى أهلها. ونكتفي بالقول بأن المنظمين لم يحتاجوا في أية لحظة خلال أيام الملتقى إلى أي مال يقضون به أمراً مستجلاً. وكيف لا يكون الأمر كذلك والمنظمون كانوا السباقيين إلى المتصدق بجزء من رواتبهم.. والصدقة لم تكن بالمال السائل وحده لدى الخواص، فهذا متصدق عكف على تزويد المشاركين بحوالي 1000 قرارة ماء معدني سدد الحاجة خلال أيام الورشة، وذلك متصدق بالترت، وهذا متصدق بالمرطبات وذلك متصدق بالعلور.. فأجر الجميع على الله.

شخ كبريات الشركات

وإذا كان من الواجب التنويه بمن كانوا السباقيين إلى إنجاح هذه التظاهرة، فمن الواجب أيضاً أن نتأسف عن عدم وجود أي صدى لدى كبريات الشركات الوطنية والخاصة لنداءات المنظمين، مثل السونطراك والسلفان والخطوط الجوية الجزائرية وشركات الهوائيات النقلة الثلاث، وقد

بالخارج (وهذا شيء جميل يبرهن أنه بإمكان الجامعة الجزائرية الاستفادة من غادرهم) ومنهم المقيمون والمقيمت داخل الوطن (وهذا شيء أجمل). وفي نفس القائمة، نجد محاضرين وافدين من جامعات المغرب العربي (تونس والمغرب) وحتى من إيران والبلاد الإفريقية، اليس هذا نمط جديد من التعاون في مجال البحث العلمي لم نسمع بمثله في بلاد أخرى؟

رقي في المستوى وثرأ في التعاون

لعل القارئ يعتقد أن التكوين الذي استفاد منه الباحثون خلال فترة الدورة كان ضعيف المستوى. وحتى نبيهن عدم صفة ذلك نشير إلى أن العدد الإجمالي لساعات المحاضرات التكوينية المتخصصة قد بلغ 53 ساعة.. وإذا أضفنا إليها ساعات المحاضرات والمناقشات العلمية التعميمية التي غالباً ما تتم ليلا مدار 60 ساعة، أي ما يعادل 6 ساعات يومياً.

هذا من ناحية الكم، أما من ناحية الكيف، فإلقاء نظرة على سجل تعاليق المشاركين يبين بأن هذه الورشة كانت من أرقى الورشات التي نظمتها المركز الدولي للرياضيات البحتة والتطبيقية. كما أن الآراء الشفوية والمكتوبة خلال الورشة وبعد انتهائها لخبرة المركز تؤكد كلها على هذا التميز. لم يكتف المنظمون بالمحاضرات التكوينية المتخصصة في الهندسة الريمانية ونحوها، بل استضافوا البعض من المختصين من أجل إلقاء محاضرات، بعد المشاء تهتم بجانب تعميم المفاهيم الرياضية وقضاياها، كما عرضت أفلام علمية أعدتها مخابر متخصصة أمريكية في تعميم العلوم، وإضافة إلى ذلك، نظم على هامش المدرسة، بالموازاة معها..

ملتقى اختص في تناول مواضيع في الطبولوجيا المتصلة بالهندسة. وقد انبثق عنه ميلاد "تجمع الطبولوجيين والمهندسين المغاربة" الذي قرّر عقد ندوات دورية في مختلف الدول المغربية.

الشعراء.. يتبعهم الرياضيون

ومن قال أن خطي الشعر والرياضيات متوازيان لا يلتقيان بالغ من بلغ من أفق بذلك، فقد أفتى بما ليس له به علم. فالشعر في ملتقى الهندسة الريمانية كان حاضراً في أمسية نشطها الشاعر السعيد المرثدي بعمية ورفقائه في الشعر وملازمته في التربية والتعليم: السعيد حرير وصالح خطاب ومداتي بن عمر. وقد صنف الجمهور المختلط الأجناس كثيراً لهؤلاء الشعراء جميعاً لتعدد مواهبهم.

هذا السعيد حرير الذي لا يمكن أن تكون شارد الذين حين الاستماع إلى إلقاءه لأي بيت من أبياته، وهذا صالح خطاب الذي تشدّ انتباهك سلاسة انتقائه من الشعر العربي إلى الفرنسي إلى الإنكليزي "برودة دم" لا تضاهي. وكذلك فعل مدني بن عمر. أما السعيد المرثدي فقد جمع بين هذا وذلك. ومن ثم فلا غرابة أن يستمتع الجمهور الرياضيياتي القادم من مختلف البلدان بتلك الأمسية الشعرية.

ولم تنس لجنة التنظيم تسطير برنامج سياحي متميز أرهق الكثيرين من المشاركين. لكن متعة الاكتشاف تغلبت على عامل التعب. وهكذا، قطع

بقلم: أبو بكر خالد سعد الله

أستاذ بقسم الرياضيات
المدرسة العليا للأساتذة، القبة
sadallah@wissal.dz

صاحب الفكرة

الأستاذ عبد الغني زغيب من أولئك الجزائريين الذين أدت بهم الظروف الداخلية في الجامعة الجزائرية إلى مغادرة جامعة عنابة في مطلع التسعينيات نحو فرنسا. وهناك بدأ العمل كباحث في الرياضيات في المركز القومي للبحث العلمي الفرنسي CNRS. ولم تمض سنوات قليلة حتى رقي إلى رتبة مدير بحث في نفس المؤسسة (وهي أعلى رتبة يبلغها الباحث في فرنسا). وبعد أن زار الأستاذ زغيب المركز الجامعي بالوادي مسقط رأسه، وتحدث مع المسؤولين والزعماء عدة مرات تبادرت إلى ذهنه فكرة تنظيم هذه المدرسة التكوينية. وهكذا، قدم طلباً منذ حوالي سنتين إلى المجلس العلمي التابع للمركز الدولي للرياضيات البحتة والتطبيقية CIMPA (الذي يوجد مقره بفرنسا والمنسب إلى اليونسكو) من أجل تنفيذ هذا المشروع بمدينة الوادي. فوافق المركز وعيّنه مديراً علمياً للمشروع. وانطلقت التحضيرات منذ ذلك التاريخ لتحقيق هذا الحلم.

نيجيريا.. الجزائر.. برا

ومن عادة هذه المدارس التكوينية التي يشرف عليها المركز المذكور في العديد من بلدان العالم. إذا ما وجد تعاوناً جاداً.. أن يفتح الباب للاستفادة من هذا التكوين لكل راضٍ من حملة ومحضري شهادات الماجستير والدكتوراه عبر العالم بشرط معينة. وهكذا شارك في المدرسة التكوينية بالوادي حوالي 120 باحث، منهم حوالي 70 من مختلف الجامعات الجزائرية و40 باحثاً من خارج الوطن (المغرب، تونس، السنغال، البنين، الكاميرون، النيجر، نيجيريا، لبنان، جنوب إفريقيا، إيران، فرنسا).

والملاحظ أن باحثين آخرين من بلدان مختلفة تعذر عليهم الحضور، لجهل لأسباب مادية وغلاء تذاكر الطائرات، سيما من القارة الأمريكية.. وحتى من القارة الإفريقية إذ أن أسعار تلك التذاكر لا تنقاس دائماً بالمسافات.. وهو ما دفع بأحد الأساتذة الباحثين إلى السفر ذهاباً وإياباً من نيجيريا إلى الوادي برا، مروراً بالنيجير وتمتراس، وقد اعترف هذا الأستاذ النيجيري بأنه قضى أوقاتاً صعبة حقاً خلال رحلته سعياً لطلب العلم.. في الوادي!!

التعاون جنوب.. شمال

من المعلوم أن التعاون العلمي بين الشمال والجنوب يتم غالباً في اتجاه شمال.. جنوب حتى إن كان يحلو لرجال السياسة الحديث عن التسامح في الاتجاهين، لكنه يبدو أنه لأول مرة في القارة الإفريقية يتم تعاون علمي من هذا القبيل في الاتجاه "جنوب.. شمال"، إضافة إلى الاتجاه "شمال.. جنوب" أو تقصد بذلك أن عدداً من الوافدين من فرنسا (أساتذة في الجامعات هناك) شاركوا في المدرسة التكوينية بالوادي بوصفهم مشاركين وليس كمحاضرين.

كما وجدنا طلبة دكتوراه فرنسيين أتوا بهذه الصفة.. ووجدنا أيضاً جزائريين وجزائريات على وشك مناقشة رسائل الدكتوراه في جامعات فرنسية يتلقون العلم في هذه المدرسة التكوينية المقامة في الصحراء الجزائرية وهناك نقطة أخرى بالغة الأهمية ينبغي على وزارة التعليم العالي أن تعمل على تعميمها، وهي وجود عدد من المكونين الجزائريين في هذه الورشة، منهم المقيم